محاضرات النقد الأدبي الحديث

المرحلة الرابعة

أ.د. فيصل غازي | أ.د. سحر ريسان

المحاضرة الأولى

المناهج النقدية

النقد والفن

إلى التردد في توصيف النقد الأدبي بالموضوعية أو الذاتية، فتارة يأخذ النقد صفات العلم ويصبح منهجاً واضح المعالم والحدود ويعتمد على لغة توصيفية تفسيرية، وعلى علم الجمال وفلسفة الفن، وتارة ثانية يأخذ النقد صفة الذوق فيصبح عملية ذاتية تتحكم فيها مشاعر الناقد وذائقته وأحكامه الشخصية.

- العلاقة بين النقد والأدب:

عندما يأخذ النقد صفة الأدبي ويصبح (النقد الأدبي) فإنه بذلك يشير إلى علاقة جدلية تربط بين النقد والأدب وفق مبدأ التأثير والتأثر المتبادل، فالنقد في الغالب يكون لاحقاً للأدب، أو قد يكون متزامناً معه. كما في النقد الذاتي عندما يكون الأديب هو الناقد الأول لإبداعه - كما نرى في شعر الحوليات في الشعر العربي الجاهلي - وهناك النقد السابق للأدب وهو مرحلة نادرة لا تكون إلا في النقد الخلّاق (الابتكاري) الذي يتحكم في الإبداع ويصيغ قوانينه الخاصة كما يقول (بوالو)[4].

ولعل من الإنصاف القول إن علاقة النقد بالأدب ليست علاقة تبعية وحسب، إذ إن النقد وهو يبلور اتجاهات بعينها ويعيد تشكيل عناصر العمل الأدبي، ويسعى إلى توجيه المسار الإبداعي في مرحلة ما من مراحل مسيرة الأدب، إنما يتجاوز علاقة الالتصاق والتبعية تلك، ليرتاد ميادين جديدة، يأخذ فيها دوراً تبشيرياً ورياديا، بما يدعو له، وينظر إليه، ويتنبأ به. وإذا كان النقد يستمد من النصوص الأدبية قواعده ومعاييره وأصوله، فإنه سرعان ما يطور تلك الأعراف، معدلاً إياها ومبصراً المبدع بقيم وتقاليد من شأنها أن تثري تجاربه، وتعمق جدل العلاقة فيما بين الأدب والنقد تأثيراً وتأثراً، أخذاً وعطاءً[5].

- وظائف النقد:

لا يمكن إنكار الدور المهم الذي يلعبه النقد في التوسط بين الأدب والقارئ، والتفسير الذي يقدمه للنصوص الأدبية ومحاولة تحليلها وتفسيرها وتعريف جمهور القراء بها، ووظائف النقد

تتمحور ما بين الأدبية، والمنهجية، والتعليمية الأخلاقية، والفكرية وهذا يؤدي إلى إمكانية الإشارة إلى بعض وظائف النقد:

- **التعريف بالنص الأدبي** وتفسيره، وبيان خصائصه الأدبية، ووضعه في مسار بنيته الاجتماعية، وبيان موقعه ودوره في هذه البنية.
- **تقديم النص الأدبي إلى القارئ**، والإسهام في إنجاز عملية تلقيه وفهمه وتقديره.
- **تأويل النص الأدبي** ، فالنص الأدبي الحي تتعدد تأويلاته واختلافاته، وبذلك يمكن للناقد الجيد أن يرى في النص الأدبي ما لم يخطر على بال المؤلف.
- **اكتشاف الظواهر الأدبية** وبلورة خصائصها، وهذه المهمة تقتضي إجراء العمليات الآتية: متابعة الإنتاج الأدبي، الملاحظة الدقيقة له، وصفاً وتفسيراً.
- **تصنيف الأدب** في اتجاهات ومذاهب، وبيان أسس هذه الاتجاهات والمذاهب.
- **كتابة تاريخ الأدب** على أساس نقدي علمي[6].
- ولعل من الوظائف المجاورة للوظائف التقليدية - **الشرح والتأويل** - إسهام النقد في الكشف عن التاريخ الحضاري لأية أمة عند ربط الأدب بحضارة أمة ما، والكشف عن التراث القومي للأمم والشعوب.

- شروط الناقد:

يجب أن تتوفر مجموعة من الشروط التي تؤهل الناقد، وهذا الشروط تبدأ مع الاستعداد الفطري أو الموهبة التي يجب أن تكون حاضرة عند الناقد كما هي عند المبدع وهذه الموهبة تقوم على: حسن الفهم، والتذوق، وقوة الملاحظة، ومعرفة الفروق بين أساليب التعبير المختلفة والقدرة على التفسير والتحليل والتقدير والتقويم[7].

وبالتأكيد فإن الاستعداد الفطري والموهبة يحتاجان إلى مؤهلات ثقافية معرفية على الناقد أن يكتسبها وينميها ويثريها، تتعلق بالثقافة العميقة والمعرفة بالتاريخ والتاريخ الأدبي واللغة وعلم اللغة وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس والكثير من المعارف والثقافات التي تعزز البعد المعرفي لدى الناقد.

- النقد والعلوم الإنسانية:

نشأ النقد أولاً ذاتياً، بسيطاً، بعيداً عن الأحكام النقدية العميقة، لكنه فيما بعد أصبح ممارسة معرفية وأول من قام بها الفلاسفة، إذ يعدّ النقد في بداياته فرعاً من الفلسفة وآخذاً الكثير من صفاتها التي تتعلق بالشمولية والتعليل، وبعد ذلك انفصل عنها.

وكان دور العلوم الإنسانية كبيراً في تطور النقد، ولا سيما التاريخ الذي صاحب النقد فيما يسمى (تاريخ الأدب) وهي مهمة نقدية، وبعد ذلك كان الانطلاق الأول للمناهج النقدية مع التاريخ حيث محاولات (سانت بيف) و (هيبولت تين). ولا يمكن إنكار دور علم الاجتماع وارتباطاته مع النقد الأدبي من حيث رفد مرجعيات هذا النقد بالأسس والنظريات أو حتى الأدوات النقدية كما حدث مع نظرية الانعكاس. كذلك تبدو العلاقة واضحة بين علم النفس والنقد الأدبي، عندما وظّف (فرويد) ومن تبعه مفاهيم علم النفس في تفسير النصوص الأدبية.

ثانياً: الفن

أختلف في تحديد ماهية الفن باختلاف غاياته، ولا يمكن تحديد الفن بمفهوم واحد، فالاختلاف يدور حوله من حيث الاصطلاح والنشأة والغاية.

واستخدمت كلمة فن أولاً في مجال الحرف والصناعة في القواعد الخاصة للنشاط الصناعي وبذلك أصبحت تدل على النشاط الذي تكون غاياته نفعية. ليتحول فيما بعد المفهوم إلى النشاط الإنساني المرتبط بالغايات الجمالية، وأصبح يدل على الطاقة التي يتميز بها الإنسان الموهوب وتساعده على أن يبتكر من خلال عمله الواعي كائنات وأشياء غير موجودة في الواقع[8].

وترتبط كلمة الفن، في أبسط مدلولاتها بتلك الفنون التي نميزها بأنها فنون تشكيلية أو مرئية أو أدبية أو موسيقية[9].

ومهما اختلفت الآراء حول الفن فإنها تلتقي على أنه [أي الفن] فعالية إنسانية تستهدف الجمال وإبداعه، وذلك بالوسائل والطرائق التي يتخذها الإنسان، وسيلة ومادة، للتعبير الجميل عن معاناته.

إذن الفن تعبير جمالي عن تجربة إنسانية. وهو الفعالية الإنسانية المتجسدة بالتعبير عن حركات الذات الواعية المجرّبة، في مواقفها الخاصة من الطبيعة والمجتمع، بوسيلة اللفظ، أو الحركة، أو الشكل، أو النغم، أو الخط أو اللون، أي بأنواع الفنون الجميلة المعروفة[10].

والفن هو التعبير الجمالي من حيث الصياغة والتأليف عن المدركات والعواطف ونقل المشاعر إلى الآخرين، وهو ليس تمثيلاً تسجيلياً للواقع، بل ابتكار لعلاقات جديدة قد تكون مستمدة من الواقع.

- أنماط الفنون الجميلة:

يمكن تقسيم الفنون الجميلة اعتماداً على الأداة التعبيرية أو الغاية التي ينصرف إليها الفن إلى:

- **فن الكلام:** ويشمل الشعر على اختلاف أنواعه ومدارسه ونزعاته، ويشمل النثر بأنماطه واتجاهاته المختلفة.
- **فن الأنغام:** بكل ما تنطوي عليه الموسيقى من أنواع الإيقاعات ودرجاتها.
- **فن الأشكال:** ويشمل جميع مظاهر الإبداع الجمالي بالشكل، كالنحت والعمارة.
- **فن الألوان والخطوط:** سواء كانت بالرسم أم التصوير، كالرسم والخط، والزخرفة.
- **الفنون المركبة:** وهي التي تستخدم أكثر من أداة تعبير كالمسرح التمثيلي، والسينما، والإعلام، والإعلان.

- خصائص الفن:

تختلف خصائص الفنون باختلاف المدارس والاتجاهات التي تعبر عن الفن، ولكن يمكن تحديد بعض الخصائص التي تجعل من الفن فناً:

- **التعبير الجمالي:** فالفن ليس تعبيراً تلقائياً تماماً ولا هو صنعة بالمعنى الحرفي، هو تعبير إبداعي مخصوص بالجمال الذي يشكل فنية التعبير، وبدونه يبقى أي تعبير عن المعاناة الإنسانية في حدود العادي ولا يثير أي اهتمام جمالي، ولا جدوى منه سوى المصلحة الانتفاعية المباشرة[11].
- **الصدق الفني:** إن الصدق في التعبير الفني غير مقتصر على نقل الوقائع والروايات والأخبار والنوادر، وإنما يتعدى ذلك إلى الصدق في تصوير الأحاسيس والمشاعر. فالصدق في الفن لا يكون في مطابقة الواقع وتسجيله بصورة تقريرية بل في صدق الفنان في التعبير عن تجربته الفنية، وبذلك يتحقق الصدق الفني في التعبير عن أفكاره وعواطفه.
- **خصوصية الشكل الفني:** فالفنون ليست سواء في الشكل، فاختلاف الأدوات التعبيرية يؤدي إلى المغايرة في الشكل ما بين نمط فني وآخر، وهذه المغايرة هي التي تكون خصوصية الفن النابعة من خصائص الشكل الفني الخاص بكل قدرة تعبيرية، ومثال ذلك أن الشكل الأدبي يعتمد على اللغة في تحديد ملامحه ما بين نثر وشعر.
- **إن جوهر الفن وأساسه يقوم على التعبير عن عاطفة الإنسان** وموقفه الوجداني تجاه الوجود، وذلك لأن أهم ما يدفع الإنسان إلى إنتاج الفن هو انفعاله أمام ظواهر الوجود. ولا يعدّ كل تعبير عن العاطفة فناً. فهناك العاطفة الغريزية التلقائية التي يعبر بها الإنسان عن حزنه وفرحه مثلاً، وهي محكومة بموقف الإنسان منها، أما العاطفة الفنية فيجب أن تتوافر فيها

القصدية من منتج التعبير الجمالي والتنظيم المرتكز على الشكل الفني، بما يضمن للفن البقاء والخلود.

- **التوصيل:** الفن ليس عواطف ومشاعر فحسب، بل هو صنعة ومهارة، محورها أصول وقواعد وخبرة تجعل الفنان قادراً على إيصال وجدانه وتجاربه وأفكاره إلى الآخرين، أو محاولة التأثير في الفرد والجماعة عبر التعبير الفني.

- تفسير نشأة الفن وماهيته:

كانت ولادة الفن تعبيراً عن حاجة طبيعية لبحث الإنسان عن الجمال، فالفن يمثل الحياة ويمثل الإنسان على المستويين الفردي والجماعي، ولارتباط الفن بالجمال والطبيعة والإنسان أصبحت عملية تفسيره وتحديده من مهام الفلاسفة أولاً، لذا نجد أن أغلب الآراء النقدية التي قيلت حول الفن جاءت من الفلسفة وفلسفة الفن.

يفسر **أفلاطون** ماهية الفنون ونشأتها ووظائفها في محاوراته الفلسفية عبر مفهومين:

الأول هو المحاكاة: يرى أفلاطون أن كل الفنون قائمة على التقليد وأنها (محاكاة للمحاكاة)، وأن الوجود مقسم على عالم مثالي وعالم محسوس طبيعي مادي، والعالم المثالي يتضمن الحقائق المطلقة والأفكار الخالصة والمفاهيم الصافية النقية. أما العالم المحسوس بكل ما يحتويه من موجودات (ومنها الفن) فهو مجرد صورة مشوهة ومزيفة عن عالم المثل[12]. فالفنان عند أفلاطون يحاكي عالم المادة المحسوس فقط، والفنان لا يستخدم عقله بل يلجأ إلى خياله وعاطفته، وبذلك فالقنان (وتحديداً الشاعر) لا يعمل على بعث الفضيلة والأخلاق وتهذيب النفوس؛ لأن شعره وفنه مستمد من عالم غير حقيقي، إن الإنتاج الفني عند أفلاطون شبيه بالصور التي نراها في المرايا، والتي لا يتعدى كونها انعكاساً لعالم المادة والحواس الذي هو انعكاس لعالم المثل، وبذلك يبتعد الفنان عن مصدر الحقيقة مرات ثلاث.

أما المفهوم الثاني الذي فسّر أفلاطون من خلاله الفنون فهو (الإلهام) أو الإيحاء الشعري أو الفني إذ يتلقى الفنان إيحاءً من ربة الشعر دون أن يكون واعياً لما يوحى إليه، ودوره لا يتعدى عملية النقل إلى المتلقي أو القارئ، فالفنان لا يعرف ماذا يحاكي كما أنه ليس صانعاً لفنه[13].

ولهذا فإن أفلاطون ينطلق في تفسيره لنشأة الفن وماهيته من الوظيفة التي يحددها للفن وهي الوظيفة الإصلاحية التربوية.

يقدم **أرسطو** تلميذ أفلاطون تفسيراً أكثر واقعية للفنون عندما يجعل من المحاكاة أداة معرفية وبذلك ينقلها من معناها السلبي إلى الإيجابي، فالمحاكاة عنده ليست نقلاً عن الواقع فحسب بل

هي محاكاة وتغيير، فهي صفة إنسانية إيجابية، والمحاكاة الشعرية عند أرسطو تمثيل للواقع فنياً وليس تصويراً فوتوغرافياً، وهي إنتاج جديد للواقع الحسي.

بقيت نظرية المحاكاة مهيمنة حتى القرن التاسع عشر، عندما حاول (ورد زورت) و(كولبردج) أن يقدما تفسيراً لنشأة الفنون وماهيتها بعيداً عن آراء أرسطو وأفلاطون ومعتمدين في ذلك على فلسفتي (كانط) و(هيجل) من خلال **نظرية (التعبير)** ، التي ترى بأن الفن ليس محاكاة وإنما تعبير فردي عن الذات الإنسانية، فالفن نتاج الفرد المبتكر، والفنان يكتب عن نفسه وأعمق مشاعره، لذا التركيز عند أصحاب هذه النظرية على الانفعال الوجداني بصفته مصوراً للذات وعلى الخيال الذي هو أساس التجربة الفنية بدلاً من النقل الحرفي.

نظرية الفن للفنحاول أصحاب هذه النظرية إبعاد الفن عن الإسراف في التعبير عن الذاتية والفردية وربطه بصياغته التعبيرية، وعدّه نشاطاً جمالياً بعيداً عن الغايات النفعية المباشرة وتحديداً الاجتماعية منها، ويعد (تيوفيل جوتيه) أول من صاغ هذا المصطلح الذي يعبر عن الغايات الجمالية الخالصة للفنون بعيداً عن تقييدها بأغراض نفعية تحدّ من قيمته الجمالية، ويعود الفضل في إرساء هذه النظرية إلى الفيلسوف (كانط).

النظرية الاجتماعيةيرى أصحاب هذه النظرية أن الفن يعكس صورة المجتمع، وأن له أهدافاً اجتماعية وإصلاحية، وأنه لا يمكن إبعاد الفن عن المجتمع الذي نشأ فيه، وارتبطت هذه النظرية بمفاهيم كثيرة لعل أشهرها: (الفن للمجتمع) الذي يرى بأن الفن ظاهرة اجتماعية تسعى إلى تحقيق الخير والكمال للإنسان، وهو -أي الفن- وسيلة لتحقيق الترابط الاجتماعي.

المفهوم الثاني هو**(الالتزام)** وهو المسؤولية الأخلاقية والاجتماعية التي يجب أن توجه الفنون كما في (الواقعية الاشتراكية)، فالفن ليس غاية جمالية فحسب بل هو وسيلة لتحقيق الترابط الاجتماعي.

المفهوم الثالث (الانعكاس)الذي استند أصحابه إلى الفلسفة الواقعية المادية في تفسير الفنون ونشأتها ووظيفتها وكذلك رفضوا "فكرة الفن الخالص والجمال الخالص" ورأوا أن هؤلاء يحطون من شأن الأدب ودوره المهم كما يقللون من قيمة المبدع الأديب؛ لأنهم ينظرون إلى عمله على أنه نوع من اللعب والزخرفية والتشكيل الخالي من أي مضمون اجتماعي. وقد رفض أعلام نظرية الانعكاس فكرة الفن الخالص والجمال الخالص، ورفضوا الأدب الذاتي والفردي، والأهم من هذا وذاك أنهم رفضوا أن تكون العواطف والانفعالات فحسب المحور الرئيس للأدب[14].